تنوع صور الالتفات في القرآن الكريم

د. عبد الله محمد النقراط
كلية الآداب – جامعة الفاتح

مقدمة البحث :

الحمد لله على آلائه –والصلاة والسلام على صفوة خلقه، وأشرف رسله وأنبيائه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين– أما بعد.

فإن أسرار القرآن الكريم كثيرة ومتنوعة، ولا يستطيع أحد حصرها مهما أوتي من العلم؛ لأنه المعجزة الخالدة.

ومن تلك الأسرار العظيمة، تصريف أساليبه، على طرائق شتى وصور مختلفة في دقة وإحكام، مظهرة بيانًا عاليًا لا تصل إليه بلاغة بشر مهما كان؛ لأنه ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1] وهو معجز في كل ما تصرف فيه من الوجوه البيانية، والتشريعية، وغيرهما مما تصرف فيه. قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [2].

ومن ثم نستطيع القول إن الصور البديعية تتصرف في القرآن الكريم كغيرها من الأساليب الأخرى بدقة متناهية في موضعها في الآية؛ لتؤدي معانيها التي تتصرف إليها أداء تامًا.

إن الصور البديعية في القرآن الكريم كثيرة، ولا يتسع المقام لتتبع تصريفها كلها، لذلك نختار منها أسلوبًا واحدًا في هذه الدراسة من الأساليب التي يظهر فيها التصريف واضحًا جليًا؛ لنتبين منها صور ذلك التصريف،

1 - سورة فصلت من الآية 41.
2 - سورة الأنعام الآية 39.

وأغراضه البلاغية المختلفة، ألا وهو تنوع صور الالتفات في القرآن الكريم مقتدين في ذلك بالقرآن الكريم، الذي يأمرنا بالنظر والتأمل في تصريف آياته؛ إذ يقول تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [1].

وقال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [2].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [3].

وغيرها من الآيات الدالة على التصريف القرآني الذي يعني أن تصريف الآيات هو تنويعها في المعنى الواحد، أو الموضوع الواحد، وعرضها بصور شتى وأساليب مختلفة؛ لتحقيق مقاصده السامية وأسراره البديعة[4].

أولاً ـ تعريـــف الالتفـــات :

يُعد الالتفات من صور تصريف الأساليب في القرآن الكريم؛ إذ تصرف كثيرًا في آيات الكتاب العزيز، فجاء على صور شتّى، وهو من أساليب القرآن ذات التفنّن العالي، والتصرف العجيب، وهو: "معدود من أعظم أساليب التفنّن عند بلغاء العربية"[5].

وعرفه الزركشي بقوله: "وهو نقل الكلام من أسلوب إلى آخر تطرية واستدرارًا للسامع، وتجديدًا لنشاطه، وصيانة لخاطره من الملال والضجر، بدوام الأسلوب الواحد على سمعه "كما قيل:

لا يُصلِحُ النَّفسَ إن كانت مصرّفة   إلا التنقل من حال إلى حال"[6].

وقال السيوطي: "الالتفات نقل الكلام من أسلوب إلى آخر، أعني من المتكلم، أو الخطاب، أو الغيبة إلى آخر"[7].

1 ـ سورة الأنعام من الآية 47.
2 ـ سورة الأنعام من الآية 66.
3 ـ سورة الأنعام من الآية 106.
4 ـ ينظر بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم 27/1.
5 ـ تفسير التحرير والتنوير 116/1.
6 ـ البرهان في علوم القرآن 314/3.
7 ـ الاتقان في علوم القرآن 253/3.

وقال العلامة الطّيبي: "وهو الانتقال من إحدى الصيّغ الثلاث، أعني الحكاية والخطاب، والغيبة، إلى الأخرى؛ لمفهوم واحدٍ رعاية لنكتة، وهو على أقسام"[1].

وقال صاحب "كتاب الطراز": "ومعناه في مصطلح علماء البلاغة هو العدول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأوّل، وهذا أحسن من قولنا هو العدول من غيبة إلى خطاب، ومن خطاب إلى غيبة؛ لأنّ الأوّل يعمُّ سائر الالتفاتات كلها"[2].

فالالتفات هو: تصريف الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر؛ لأغراض بلاغية دقيقة، تحقق المقاصد السامية المرادة من تصريف تلك الأساليب، وله فوائد عظيمة.

ثانيًا ــ فوائــد الالتفات :

بعد أن عرف الطوفي الالتفات بالرجوع عن أسلوب من أساليب الكلام إلى غيره، ذكر أن من فوائده تطرية سمع السامع، وإيقاظه للإصغاء[3].

وجعله يحي بن حمزة العلوي "من أجلّ علوم البلاغة، وهو أمير جنودها، والواسطة في قلائدها وعقودها، وسُمّي بذلك أخذًا له من التفات الإنسان يمينًا وشمالاً"[4].

وقال أبو حيان: "فائدة هذا الالتفات إظهار الملكة في الكلام، والاقتدار على التصرف فيه"[5].

وقال الزمخشري: "وذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه؛ ولأن الكلام إذا نُقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظًا للإصغاء إليه، من إجرائه على أسلوب واحد، وقد تختص مواقعه بفوائد[6].

1 ـ التبيان في علوم المعاني والبديع والبيان ص 284.
2 ـ كتاب الطراز للعلوي 132/2.
3 ـ ينظر الإكسير في علم التفسير ص 140.
4 ـ الطراز 131/2.
5 ـ تفسير البحر المحيط 24/1.
6 ـ الكشاف 64/1.

وقد اعترض عليه ابن الأثير بقوله: "وليس الأمر كما ذكره؛ لأن الانتقال في الكلام من أسلوب إلى أسلوب إذا لم يكن إلاّ تطرية لنشاط السّامع، وإيقاظًا للإصغاء إليه، فإن ذلك دليلٌ على أن السّامع يملّ من أسلوب واحدٍ، فينتقل إلى غيره؛ ليجدَ نشاطًا للاستماع، وهذا قدْحٌ في الكلام لا وصفٌ له؛ لأنّه لو كان حسنًا لما ملَّ.

ثم قال أيضًا: ولو سلّمنا إلى الزمخشري ما ذهب إليه لكان إنما يوجدُ ذلك في الكلام المطوّل، ونحن نرى الأمرَ بخلاف ذلك؛ لأنه قد ورد الانتقالُ من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة في مواضعَ كثيرةٍ من القرآن الكريم، ويكونُ مجموعُ الجانبين معًا يبلغ عشرة ألفاظ، أو أقلَّ من ذلك.

ومفهوم قول الزمخشريِّ في الانتقال من أسلوب إلى أسلوب إنّما يُستعملُ قصدًا للمخالفة بين المنتَقَل عنه والمنتقل إليه، لا قصدًا لاستعمال الأحسن، وعلى هذا فإذا وجدنا كلامًا ما قد استُعمل في جمعية الإيجازُ، ولم يُنتقل عنه، أو استعمل في جميعه الإطناب ولم ينتقل عنه، وكان كلا الطّرفين واقعًا في موقعه قلنا: هذا ليس بحسَن؛ إذ لم ينتقل فيه من أسلوب، وهذا قولٌ فيه ما فيه.

وما أعلمُ كيف ذهب على مثل الزمخشريّ مع معرفته بفنِّ الفصاحة والبلاغة؟

والذي عندي في ذلك أنّ الانتقالَ من الخطاب إلى الغيبة أو من الغيبة إلى الخطاب لا يكونُ إلا لفائدةٍ اقتضتها. وتلك الفائدةُ أمرٌ وراءَ الانتقال من أسلوب إلى أسلوب، غير أنّها لا تُحَدُّ بحَدٍّ، ولا تُضْبَطُ بضَابطٍ، لكنْ يشارُ إلى مواضعَ منها؛ ليُقاسَ عليها غيرَها، فإنّا قد رأينا الانتقالَ من الغيبة إلى الخطاب قد استُعمل لتعظيم شأن المخاطَب، ثم رأينا ذلك بعينه – وهو ضدُّ الأول– قد استعمل في الانتقال من الخطاب إلى الغيبة، فعلمنا حينئذ أنّ الغرضَ الموجبَ لاستعمال هذا النّوع من الكلام لا يجري على وتيرة واحدة، وإنما هو مقصورٌ على العناية بالمعنى المقصود، وذلك

المعنَى يتشعَّب شُعَبًا كثيرة لا تنحصر، وإنّما يُؤْتَى بها على حسب الموضع الذي ترد فيه"[1].

وقد ارتضاه صاحب "كتاب الطراز" حين قال: "القول الثلاث محكيٌّ عن الزمخشريّ، وحاصل مقالته هو أن ورود الالتفات في الكلام إنما يكون إيقاظًا للسّامع عن الغفلة، وتطريبًا له ينقله من خطاب إلى خطاب آخر، فإن السامع ربما ملّ من أسلوب فينقله إلى أسلوب آخر، تنشيطًا له في الاستماع واستمالة له في الإصغاء إلى ما يقوله.

وما ذكره الزمخشريّ لا غُبار عليه، وهو قول سديدٌ، يشير إلى مقاصد البلاغة، ويَعْتَضِدُ بتصرُّف أهل الخطاب، ومن مارس طرقًا من علوم الفصاحة لاح له على القُرب أنّ ما قاله الزمخشريّ قويٌّ من جهة النظر يَدْري كُنْهه النّظارُ، ويتقاعد عن فهمه الأغمارُ"[2].

والذي أميل إليه هو ما ذهب إليه ابن الأثير من أنها لا تحدّ بحدّ، ولا تضبط بضابط، فتكون معانيها مناسبة لمواقعها، وأسباب تصريفها، وورودها، وسنتبين ذلك من صور تصريف الالتفات حين تفصيلها.

وذكر الزركشيّ أن للالتفات فوائد عامة وخاصة، فمن العامة التّفنّن والانتقال من أسلوب إلى آخر؛ لما في ذلك من تنشيط السامع، واستجلاب صفاته، واتساع مجاري الكلام، وتسهيل الوزن والقافية.

ونقل عن البيانيين: أن الكلام إذا جاء على أسلوب واحد وطال حَسُن تغيير الطريقة.

ونازعهم القاضي شمس الدين بن الجوزي، وقال الظاهر: أنّ مجرّد هذا لا يكفي في المناسبة، فإنّا رأينا كلامًا أطولَ من هذا والأسلوب محفوظ.

وأما الخاصة فتختلف باختلاف محالّه، ومواقع الكلام فيه على ما يقصده المتكلم[3].

---

1 - المثل السائر 2/136-137.

2 - كتاب الطراز 2/133-134 ويقصد بقوله: "الأغمار" الرجل الذي لم يجرّب الأمور (ينظر مختار الصحاح ص 225 مادة غمر).

3 - البرهان في علوم القرآن 3/325-326.

وقال السّيوطي: "وله فوائد منها: تطرية الكلام، وصيانة السمع عن الضجر والملال؛ لما جبلت عليه النّفوس من حبّ التنقلات، والسآمة من الاستمرار على منوال واحد، وهذه فائدته العامة، ويختصّ كل موضع بنكت، ولطائف باختلاف محلّه"(1).

وعليه فإن للالتفات في القرآن الكريم فوائد كثيرة، ومقاصد سامية، تفهم من سياق الكلام، وتصريفه البديع، الذي يرد على صور شتّى، ولا يسمح المقام لتتبعها في هذه الدراسة القصيرة، ولذلك سنقتصر على إيراد بعضها على سبيل المثال لا الحصر.

ثالثًا – صـــور الالتفــــــات :

الصورة الأولى تصريف الالتفاف من الغيبة إلى الخطاب، كما في قوله تعالى: **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَـنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾** (2).

فلقد بدأت الآيات بذكر صفات الله –سبحانه وتعالى– على طريق الغيبة، ثم تصرف إلى طريق الخطاب في قوله سبحانه: **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾**.

ويلحظ ابن الأثير قائلاً: "فإنّه إنّما عدل فيه من الغيبة إلى الخطاب؛ لأنّ الحمدَ دون العبادة، ألا تراك تحمدُ نظيرك ولا تعبدُه؟ فلمّا كانت الحالُ كذلك استعمل لفظ **﴿الْحَمْدُ﴾** لتوسّطه مع الغيبة في الخبر، فقال: **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾** ولم يقل: الحمد لك، ولما صارَ إلى العبادة التي هي أقصَى الطاعات، قال: **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾** فخاطب بالعبادة إصراحًا بها، وتقرُّبًا منه –عزَّ اسمُه– بالانتهاء إلى محدودٍ منها.

وعلى نحو من ذلك جاء آخر السورة فقال: **﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾** (3) فأصْرحَ الخطاب لمّا ذكر النّعمة، ثم قال: **﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ**

---

1 - الإتقان 253/3 .
2 - سورة الفاتحة الآيات 1-4 .
3 - سورة الفاتحة الآية 6 .

عَلَيْهِمْ﴾ [1] عطفًا على الأول؛ لأنّ الأول موضعُ التقرُّب من الله بذكر نعمه، فلمّا صارَ إلى ذكر الغضَب جاء باللفظ منحرفًا عن ذِكْر الغاضِب، فأسْنَدَ النّعمة إليه لفاظًا وروَى عنه لفظ الغَضَب تحنُّنًا ولطفًا...

وهذه الصورة قد انتقلَ في أولها من الغَيبة إلى الخطابِ؛ لتعظيم شأن المخاطب، ثم انتقل في آخرها من الخطاب إلى الغيبة؛ لتلك العِلّة بعينها، وهي تعظيم شأن المخاطب أيضًا؛ لأنّ مخاطبة الربِّ –تبارك وتعالى– بإسناد النِّعمة إليه تعظيمٌ لخطابه[2].

والسّرَ في هذا التصريف، قد أوضحه صاحب "الإكسير في علم التفسير" بقوله: "وأمّا فائدة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مع ما قبله من خطاب الغيبة فمن وجهين: أحدهما، أنّهم لما وصفوا الله –تعالى– بخصائص الربوبية وصفات الألوهية بأسلوب الغيبة؛ ليكون أدل على صدقهم وإخلاصهم في ذلك، مما إذا خاطبوه به؛ إذ المخاطب بالمدح قد يراقب فيداجي، ويخالف لسانُه قلبه بخلاف المادح في الغيبة، حيث عدلوا حال الإخبار والسؤال إلى الخطاب؛ لأنّه أدل على الخضوع والضراعة، وشدة الرغبة، ومسيس الحاجة.

الثاني: أنّ أسلوب الخطاب أخص من أسلوب الغيبة، والعبادة أخص من الحمد والثناء؛ إذ الإنسان يحمد نظيره ولا يعبده، فاستعمل الأسلوب الأخص في ذكر الفعل الأخص[3].

وممن فصّل ذلك السّر أيضًا، العلاّمة الطيبي، إذ قال: "والنكتة فيه أنّ العبد إذا قدّر مُثُوله بين مولاه من حقه أن يكون حاضر القلب، يقظان النّفس، درّاك اللمحة، سيّما إذا افتتح بالتحميد، يستحضر سبوغ نعمائه: جلائلها ودقائقها، فإذا انتقل منه إلى اسم الذاتِ يستجدُّ لنفسه هيبة الجلال، والكبرياء.

ثم إذا انتقل منه إلى معنى الرُّبوبية والمالكية يستزيد المحركُ، وإذا ارتقى منه إلى كونه شامل الرحمة دنياها وعُقباها يتضاعف المحرّك، ثم إذا آل الأمر إلى أنّه مالك الأمور في العاقبة ثوابها وعقابها، يصير ذلك

1 ـ سورة الفاتحة الآية 7 .
2 ـ المثل السائر 2/137-138 .
3 ـ الإكسير في علم التفسير ص 141 .

المحرّك إلى حدّ لا يتمالكُ معه إلى أن لا يُقبل إلى معبوده، ومُعينه الحاضر المشاهد"[1].

وقال الزمخشري: "ومما اختص به هذا الموضع، أنّه لما ذكر الحقيق بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات العظام تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن، حقيق بالثناء، وغاية الخضوع، والاستعانة في المهمات، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات، فقيل: إيّاك يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة، لا نعبد غيرك، ولا نستعينه؛ ليكون الخطاب أدل على أن العبادة له لذلك التمييز الذي لا تحق العبادة إلاّ به، فإن قلت: لم قُرنت الاستعانة بالعبادة؟ قلتُ: ليجمع بين ما يتقرّب به العباد إلى ربّهم، وبين ما يطلبونه ويحتاجون إليه من جهته"[2].

ويرى أبو السعود: أن الالتفات في هذه الآيات، تلوين للنّظم من باب إلى باب، جار على نهج البلاغة في افتنان الكلام، ومسلك البراعة حسبما يقتضي المقام، لما أنّ التنقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل في استجلاب النفوس، واستمالة القلوب، يقع من كل واحد من التكلّم والخطاب والغيبة إلى كل واحد في الآخرين إلى غير ذلك من الالتفاتات الواردة في التنزيل؛ لأسرار تقتضيها، ومزايا تستدعيها.

ومما أستأثر به هذا المقام الجليل من النكت الرائقة، الدّالة على أن تخصيص العبادة والاستعانة به –تعالى– لما أجرى عليه من النعوت الجليلة، التي أوجبت له –تعالى– أكمل تميز، وأتمّ ظهور، بحيث تبدل خفاء الغيبة بجلاء الحضور، فاستدعى استعمال صيغة الخطاب، والإيذان بأنّ حقّ التالي بعدما تأمّل فيما سلف من تفرده –تعالى– بذاته الأقدس، المستوجب للمعبوديّة، وامتيازه بذاته عما سواه بالكلية، واستبداده بجلائل الصفات وأحكام الربوبية[3].

وهكذا فإنّ العباد لما أثنوا على الله بما هو أهله على سبيل الغيبة، تصرف إلى الخطاب إقرارًا بالربوبية، وإظهارًا للعبودية، وتذللاً وخضوعًا،

1 - التبيان في علم المعاني والبديع والبيان ص 284-285.
2 - الكشاف 1/64-65 .
3 - إرشاد العقل السليم 1/16 .

وتحقيقًا لعبادته -سبحانه وتعالى- تلك سرّ التصريف في هذه الآيات، وبلاغته.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِداً﴾ [1].

وقد أوضح ابن الأثير فائدة التصريف في هذه الآية، إذ قال: "وإنما قيل:

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ﴾ وهو خطاب للحاضر بعد قوله: ﴿وَقَالُوا﴾ وهو خطاب للغائب؛ لفائدة حسنةٍ، وهي زيادةُ التسجيل عليهم بالجرأة على الله -تعالى- والتعرُّض لسُخطه، وتنبيهٌ لهم على عِظم ما قالوه كأنّه يخاطبُ قومًا حاضرين بيْن يديه، مُنْكِرًا عليهم، ومُوبِّخًا لهم"[2].

وأما الصورة الثانية فهي التصريف من التكلّم إلى الغيبة كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُو يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [3].

بدأت الآية الكريمة بأمر الله -تعالى- لنبيه -ﷺ- أن يبلغ النّاس، أنّه رسول من عند الله -سبحانه وتعالى- وأن يدعوهم إلى الإيمان به، والاهتداء بهديه -ﷺ- على طريق التكلم في قوله تعالى: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ﴾ ثم تصرف إلى طريق الغيبة، فقال تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ دون أن يقول: ربّي، والسرّ في هذا التصريف: هو الدلالة على أن الرسول لا يدعو الناس إلى الإيمان به لشخصه في ذاته، بل يدعوهم إلى اتباعه بوصفه رسولاً اصطفاه الله؛ لإبلاغ دينه، والهداية إلى نهجه القويم، فهو بهذا التصريف يقدم الدلائل التي تقود كلّ ذي عقل لتصديقه، والإيمان بدعوته.

وقد بين فائدة هذا التصريف، صاحب كتاب "الإكسير في علم التفسير" إذ قال: "لفائدتين: إحداهما: دفع التهمة عن نفسه بالعصبية لها.

1 - سورة مريم الآيتان 88-89 .
2 - المثل السائر 138/2 .
3 - سورة الأعراف 158 .

الثانية: تنبيههم على استحقاقه الإتباع لما اتصف به من الصفات المذكورة من النبوة، والأمية التي هي أكبر دليل على صدقه، وأنه لا يستحق الإتباع لذاته، بل لهذه الخصائص التي بمن قامت وجب إتباعه"[1].

وأما الصورة الثالثة، فهي التصريف من الخطاب إلى التكلم، كما في قوله تعالى: ﴿**فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى**﴾ [2].

فقد بدأت الآية الكريمة بالخطاب الموجه إلى فرعون، بأنّهم غير مبالين لتهديده في قوله تعالى: ﴿**فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ**﴾ ثم تصرف إلى التكلم، فقال تعالى: ﴿**إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا**﴾ إظهارًا لكمال الخضوع، والتذلل لله ربّ العالمين، وهو الكفيل بمغفرة الذنوب والمعاصي التي اقترفوها.

وأما الرابعة: فهي التصريف من الخطاب إلى الغيبة، كما في قوله تعالى:

﴿**هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ**﴾ [3].

فقد بدأ الخطاب ببيان قدرة الله –تعالى– بتسيير خلقه في البر والبحر، ثم تصرف إلى الغيبة، فقال تعالى: ﴿**وَجَرَيْنَ بِهِم**﴾.

والسر في هذا التصريف هو بيان قدرة الله –تعالى– وحكمته البالغة في خلقه، وتسخير الكون لهم.

قال ابن الأثير: "فإنّه إنّما صرف الكلام ها هنا من الخطاب إلى الغيبة؛ لفائدة، وهي أنّه ذكر لغيرهم حالهم؛ ليُعجّبهم منها، كالمخبر لهم،

1 - الإكسير في علم التفسير ص 142 وينظر البرهان للزركشي 317/3 والإتقان للسيوطي 254/3.
2 - سورة طه 71-72.
3 - سورة يونس 22.

ويستدعي منهم الإنكار عليهم، ولو تصرف الكلام بخلاف ذلك لذهبت تلك الفائدة التي أنتجها خطابُ الغيبة"[1].

وقد عد من هذا القبيل أيضًا قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ * وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ [2].

قال ابن الأثير: "الأصل في ﴿تَقَطَّعُوا﴾ تقطعتم، عطفًا على الأول، إلاّ أنه صرف الكلام من الخطاب إلى الغيبة، على طريقة الالتفات، كأنّه ينعى عليهم ما أفسدوه إلى قوم آخرين، ويقبّح عندهم ما فعلوه"[3].

وتعقبه صاحب كتاب "الإكسير في علم التفسير" بقوله: "هذا وإن كان محتملاً إلا أن ظاهر الكلام وسياقه خلافه، وهو أنه –تعالى– خطاب المؤمنين بأن الأمة واحدة، وأنه الرّب المستحق بأن يبقى ويعبد، ثم أخبر المؤمنين عن الكافرين بأنهم تقطعوا أمرهم بينهم، وأنّهم فرّقوا دينهم، وكانوا شيعًا، وعدلوا بالعبادة والتقوى عن مستحقها، ووضعوها في غير حقها، وفعلوا من التقوى خلاف ما يقتضيه اتحاد الأمة"[4].

والسر في بلاغة هذا التصريف أن الآية الأولى تتحدث عن عقيدة التوحيد التي يأمرنا الله –عز وجل– بالاعتصام بها، والالتفاف حولها، وأما الآية الثانية فهي إخبار عن هؤلاء الذين انحرفوا عن تلك العقيدة، وفرّقوا دينهم، وعلى ذلك فإنّ هذا التصريف فيه إيحاء بأن هؤلاء بصنيعهم هذا قد ابتعدوا عن رحمه الله –تعالى– ولم يعودوا أهلاً لخطابه –جل شأنه–.

وأما الصورة الخامسة فهي التصريف من التكلم إلى الخطاب، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [5]، وإنما صرف الكلام عن خطاب نفسه إلى خطابهم؛ لأنه أبرز الكلام لهم في معرض المناصحة، وهو يريدُ مناصحتهم؛ ليتلطّف بهم، ويُدَاريهم؛ لأن ذلك أدخلُ في إمحاض النُّصح حيث لا يريد لهم إلاّ ما يريدُ لنفسه[6].

---

1 - المثل السائر 143/2.
2 - سورة الأنبياء من الآية 91-92.
3 - المثل السائر 143/2.
4 - الإكسير في علم التفسير ص 143.
5 - سورة يس من الآية 21.
6 - المثل السائر 140/2، والإكسير ص 144، والبرهان للزركشي 315/3.

وأما الصورة السادسة فهي التصريف من الغيبة إلى التكلم، كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [1].

"وفائدته أنه لمّا كان سَوْقُ السحاب إلى البلد إحياء للأرض بعد مواتها بالمطر دالاً على القدرة الباهرة، والآية العظيمة التي لا يقدر عليها غيره، عدل عن لفظ الغيبة إلى التكلم؛ لأنه أدخل في الاختصاص، وأدلُّ عليه وأفحم"[2].

وهكذا فإن السّر في بلاغة هذا التصريف هو إظهار لقدرة الله الباهرة، وبيان الأدلة على قدرته –سبحانه وتعالى– على البعث، وهو متمثل في سوق السحاب، وإحياء الأرض، وإرسال الرياح، تلك هي القدرة الإلهية العظيمة.

وأما الصورة السابعة فهي التصريف من خطاب الواحد لخطاب الاثنين، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [3].

ومن خطاب الواحد إلى خطاب الجمع، كما في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾[4].

ومن خطاب الاثنين إلى الواحد، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [5]، ومن خطاب الاثنين إلى الجمع، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [6].

1 - سورة فاطر من الآية..9.
2 - البرهان في علوم القرآن 320/3.
3 - سورة يونس من الآية 78.
4 - سورة الطلاق من الآية 1.
5 - سورة طه من الآية 48-49.
6 - سورة يونس من الآية 87.

ومن الجمع إلى الواحد، كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [1].

ومن الجمع إلى التثنية، كقوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ [2].

وأما الصورة الثامنة، فهي تصريف الأفعال، إذ يتصرف الفعل من المضارع إلى الأمر، كقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ﴾ [3].

يرى ابن الأثير أنه ليس الانتقال فيه من صيغة إلى صيغة طلبًا للتوسع في أساليب الكلام فقط، بل لأمر وراء ذلك، وإنمّا يُقصد إليه تعظيمًا لحال من أجرى عليه الفعل المستقبل، وتفخيمًا لأمره، وبالضدّ من ذلك فيمن أجرى عليه فعل الأمر، ولم يقل وأشهدكم؛ ليكون موازنًا له وبمعناه؛ لأن إشهاده الله على البراءة من الشرك صحيحٌ ثابتٌ، وأما إشهادهم فما هو إلا تعاونٌ لهم ودلالةٌ على قلة المبالاة بأمرهم؛ ولذلك عُدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر، كما يقولُ الرجلُ لمن يَئِس النَّرى بينَه وبينه: "أشْهَدْ عليّ أني أحبُّك" تهكُّمًا به، واستهانةً بحاله[4].

وقد علل ذلك الزمخشري بقوله: "لأن إشهاد الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد، وشد معاقدة، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم، ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب، فعدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة"[5].

وقد يتصرف من الفعل الماضي إلى فعل الأمر، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [6].

---

1 - سورة يونس من الآية 87.
2 - سورة الرحمن 31-33، وينظر البرهان للزركشي 335/3.
3 - سورة هود من الآية 54.
4 - ينظر المثل السائر 144/2-145.
5 - الكشاف 276/2.
6 - سورة الأعراف من الآية 28.

والسر في ذلك قد بينه ابن الأثير إذ قال: "فعدِل عن ذلك إلى فعل الأمر؛ للعناية بتوكيده في نفوسهم، فإنّ الصلاة من أوكد فرائض الله على عباده، ثم أتبعها بالإخلاص الذي هو عمل القلب؛ إذ عمل الجوارح لا يصحُّ إلا بإخلاص النّية"[1].

وقد يتصرف من الماضي إلى المضارع، كما في قوله تعالى: **﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾**[2].

فوسّط قوله: **﴿فَتُثِيرُ سَحَاباً﴾** وجاء به على جهة المضارعة والاستقبال بين فعلين ماضيين، وهما قوله: **﴿أَرْسَلَ﴾** و**﴿سُقْنَاهُ﴾**.

والسّرُ في مثل هذا، هو أنّ الفعل المضارع يوضّح الحال والاستقبال، ويستحضر تلك الصورة، حتّى كأنّ الإنسان يشاهدُها، وليس كذلك الفعل الماضي إذا عُطف؛ لأنّه لا يُعطى هذا المعنى، ولا يدلُ عليه.

فإذا قال: فتثير على جهة الاستقبال بعد ما مضى، قوله: أرسل، فإنما يكون دالاً على حكاية الحالة التي تقع فيها إثارةُ الريّح للسحاب، واستحضار لتلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة[3].

وكذلك تصرف في قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً العَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾**[4].

فجاء قوله تعالى: **﴿كَفَرُوا﴾** ماضيًا تنبيهًا على أن كفرهم ثابت مستمر غير متجدد، ثم تصرف البيان فجاء مضارعًا، وهو قوله: **﴿يَصُدُّونَ﴾** دلالة على أنّ الصد متجدد على مر الأيام.

---

1 ـ المثل السائر 145/2.
2 ـ سورة فاطر 9.
3 ـ كتاب الطراز 138/2، والمثل السائر 146/2.
4 ـ سورة الحج 23.

وقد يتصرف من المضارع إلى الماضي، كما في قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾[1].

ويعلل صاحب كتاب الطراز، السرّ في هذا التصريف بإيثار الماضي والعدول إليه دال على مبالغة في الثبوت والاستقرار؟![2].

وقال ابن الأثير: "فإنه إنما قال ﴿فَفَزِعَ﴾ بلفظ الماضي بعد قوله: ﴿يُنفَخُ﴾ وهو مستقبل للإشعار بتحقيق الفزع، وأنه كائن لا محالة؛ لأن الفعل الماضي يدلُّ على وجود الفعل وكونه مقطوعًا به"[3].

وكذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾[4].

قال الزمخشري: "فإن قلتَ: لم جيء بحشرناهم ماضيًا بعد ﴿نُسَيِّرُ﴾ ﴿وَتَرَى﴾؟ قلتُ: للدلالة على أنّ حشرهم قبل التسيير، وقبل البروز؛ ليعاينوا تلك الأهوال العظائم، كأنّه قيل: وحشرناهم قبل ذلك"[5].

وقال غيره: "فعبر عن هذه الأشياء بالماضي، تنبيهًا على تحقق وقوعها كشيء مضى، وفزع منه، مبالغة في التهديد والوعيد"[6].

نستخلص من العرض السابق أن للالتفات في القرآن الكريم صورًا كثيرة، تتصرف بطرائق شتى، وذلك لتحقيق أغراض بلاغية متنوعة، حسب موقع كل صورة من تلك الآية الواردة فيها، الأمر الذي ينبئ عن بلاغة القرآن العالية، وتصريفه البديع، ولا غرو في ذلك فهو كتاب الله المعجز في جميع ما اشتمل عليه من تصريف بديع، وتفنّن دقيق في مقاصده العظيمة وأساليبه الرفيعة.

---

1 - سورة النمل 89.
2 - كتاب الطراز 139/2.
3 - المثل السائر 149/2.
4 - سورة الكهف 46.
5 - الكشاف 487/2.
6 - الإكسير في علم التفسير ص 147.

مصـــادر البحـــث ومراجعـــــه:

1- القرآن الكريم، مصحف الجماهيرية، برواية قالون عن نافع والرسم العثماني على ما اختاره الحافظ أبو عمرو الداني، أشرفت على إعداده وطباعته ونشره، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، ليبيا.

2- الإتقان في علوم القرآن، للحافظ جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث القاهرة، ط الثالثة 1405هـ.

3- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط الرابعة 1414هـ/1994م.

4- الإكسير في علم التفسير للعالم الطوفي سليمان، تحقيق: عبدالقادر حسين، مكتبة الآداب لصاحبها علي حسين، القاهرة، دت.

5- البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، دار الفكر، ط الثالثة 1400هـ/ 1980م.

6- بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم، دلالة التصريف القرآني أولى من دلالة ولفظ التكرار، د. عبدالله محمد النقراط، دار قتيبة دمشق، ط الأولى 1423هـ/ 2002م.

7- التبيان في علم المعاني والبديع والبيان، للعلامة شرف الدين الطيبي، تحقيق وتقديم: هادي عطية مطر الهلالي، عالم الكتب، ومكتبة النهضة العربية بيروت، ط الأولى 1407هـ/ 1987م.

8- تفسير البحر المحيط، لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دراسة وتحقيق وتعليق: عادل أحمد عبدالموجود وآخرين، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى 1413هـ/ 1993م.

9- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، النشرة الثانية، الدار التونسية للنشر 1973م.

10- كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، تأليف يحيى ابن حمزة العلوي، دار الكتب العلمية بيروت 1400هـ/ 1980م.

11- الكشاف عن حقائق التزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تأليف أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، دار المعرفة بيروت، دت.

12- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لضياء الدين بن الأثير، قدمه وعلق عليه: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط الثانية، دت.

13- مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر الرازي، دراسة وتقديم: عبدالفتاح البركاوي، دار المنار، دت.